شرح حديث

إحفظ الله يحفظك

للشيخ أبي أويس رشيد بن أحمد الإدريسي الحسني عامله الله بلطفه الخفي وكرمه الوفي

إعداد: مجموعة تفريغ الدروس

(الشيخ لم يراجع التفريغ)

أصل هذه الرسالة

محاضرة ألقاها الشيخ أبو أويس رشيد الإدريسي

-حفظه الله-

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

أخرج الإمام الترمذي رحمه الله في سننه من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: "كنت خلف النبي ﷺ يوما فقال: يا غلام إني أعلمك كلمات إحفظ الله يحفظك إحفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف"[1]

هذا الحديث عظيم المنزلة رفيع المقام، فهو من الأحاديث الجامعة لأمور الدين، ولذلك أورده الإمام النووي رحمه الله في الأربعين[2]، فهو يتضمن وصايا جليلة على حد تعبير الإمام الصنعاني رحمه الله تعالى في سبل السلام، قال الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى: "هذا الحديث يتضمن وصايا عظيمة وقواعد كلية من أهم أمور الدين"[3] وهو كذلك فقد تضمن أصولا وقواعد مهمة في أمور الدين وتتعلق بأمور الشريعة.

قال عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-: "كنت خلف النبي ﷺ يوما فقال يا غلام إني أعلمك كلمات إحفظ الله يحفظك إلى آخر كلامه عليه الصلاة والسلام"، هذه الكلمات كما سمعنا من كلام أهل العلم تضمنت أصولا وقواعد لا يحسن بعموم الناس فضلا عن طلبة العلم أن يجهلوا متضمنها ولذا قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى في صيد الخاطر على هذا الحديث قال: "تدبرت هذا الحديث فأدهشني وكدت أطيش فوا أسفاه من الجهل بهذا الحديث وقلة التفهم لمعناه"

استُهل هذا الحديث بقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما "كنت خلف النبي ﷺ يوما"

قوله رضي الله عنه "كنت خلف النبي ﷺ" هذا على معنيين عند الشراح، إما أنه كان يمشي خلف النبي ﷺ، وإما أنه كان يركب خلف النبي ﷺ في الدابة أو على الدابة، والمعنى الثاني هو المشهور عند أهل العلم، أن النبي ﷺ كان يركب دابته وكان خلفه هذا الصحابي الجليل، وفي هذا جملة فوائد من ذلك:

1. جواز الإرداف.
2. فضيلة هذا الصحابي الجليل حيث كان رديف رسول الله ﷺ على الدابة خلفه فمس بدنُه بدنَه الشريف ﷺ.
3. تواضع رسول الله ﷺ، حيث كان يركب الدواب وكان يردف خلفه من يردف.

[1] أخرجه الترمذي: صفة القيامة (2516)، وقال: حديث حسن صحيح، وأحمد: مسند بني هاشم (2664)،(6758).
[2] الحديث التاسع عشر.
[3] جامع العلوم والحكم (ص: 462) ط.مؤسسة الرسالة.

4. حرص هذا الصحابي الجليل على متابعة أحوال رسول الله ﷺ وحرصه على نقل ذلك للناس، ولذلك حظي هذا الصحابي الجليل بدعاء رسول الله ﷺ المعروف والمشهور، قال رسول الله ﷺ: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل"[1] والمراد بالتأويل التفسير.

قال عبد الله بن عباس: "كنت خلف النبي ﷺ يوما، فقال يا غلام إني أعلمك كلمات"

لفظ الغلام تطلق عند أهل اللغة وفي اللسان العربي على معان، قيل الغلام تطلق على المرء من الفطام إلى السابعة، وقيل تطلق من الفطام إلى التاسعة أو العاشرة، وقيل من الولادة إلى البلوغ، وقيل من الولادة إلى الإلتحاء، أقوال لأهل العلم أو أقوال لأهل اللغة في المراد بالغلام وكل هذه الأقوال تدل على صغر السن، فنستفيد أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما كان صغير السن، فعلمه النبي ﷺ، قال "يا غلام" ومناداته بالغلام فيه نوع من التودد والتلطف من رسول الله ﷺ، وهذا مهم في سياق عرض الكلام.

في مساق التعليم، الأصل هو التودد فينبغي على الشيخ أن يتودد لطلابه وينبغي على الكبير كذلك أن يتودد، وعلى المعلم أن يتودد لتلاميذه وهكذا... هذا هو الأصل، ولا يصح أن نجعل الشدة ظاهرة في العرض أو في غيره، فالقاعدة الشرعية في هذا المقام أن "الرفق غداء والشدة دواء"، الشدة مطلوبة لكنها كالدواء، هل الدواء ينمي البدن؟! من الذي ينمي البدن؟ الغداء، فلا يصلح أن ننمي البدن بالدواء، فالدواء للعلاج لا لتنمية البدن، فهو بمقدار وبحده وعند الحاجة، أما الذي ينمي ويثمر هو الرفق، هذا هو الأصل.

والتودد والتلطف في سياق العرض لون من ألوان الرفق، إذن فقوله ﷺ "يا غلام" هذا نوع من التودد ونوع من التلطف وهذا ضروري في الخطاب في مساق التبليغ والتعليم والتربية، ولذلك أرباب الشأن ممن تحدثوا عن فن الخطابة -هذا فن له قواعده وأسسه، وتكلم على ذلك أهل العلم قديما وممن عرف بالكلام عن هذا الموضوع العلامة جمال الدين القاسمي الشامي -رحمه الله-، فالخطابة فن وتختزل أسسها وقواعدها في أمرين: الإقناع والإستمالة، أن تكون مقنعا في كلامك باعتبارات معينة معلومة، وأن تحقق الإستمالة بطريقة كلامك وبحركاتك -هذا يُعلَّم-، والناظر في هدي النبي ﷺ في باب الخطابة يجد أن مرجعه إلى هذين الأمرين، -قد ألف أحد المعاصرين في هدي النبي ﷺ في الخَطابة أو الخطابة في ضوء الكتاب والسنة- الشاهد أن التودد والتلطف نوع من أنواع الإستمالة فأنت تستميل غيرك تبليغا له تربية له تعليما له باستمالتك إياه بالتلطف والتودد.

إذن قال ﷺ "يا غلام إني أعلمك" هذا أيضا لون آخر من ألوان التودد والتلطف ولم يقل له ﷺ إني آمرك، مع أنه لو قالها لصح سياقها لأنه نبي يأمر ﷺ لكنه ﷺ يعلم الناس، في مقام التشريع وفي مقام البيان للناس، قال ﷺ "يا غلام إني أعلمك كلمات" جمع كلمة، والكلمة إذا أطلقت في الكتاب والسنة فالمراد بها الجملة، ليس المراد بها إذا أطلقت في الكتاب والسنة الكلمة عند النحاة، ولذلك قوله ﷺ "إني أعلمك كلمات" أي جملا ووصايا، فهي وصايا جليلة كما يقول الصنعاني -رحمه الله-

"إني أعلمك كلمات" هذا نوع من براعة الإستهلال، فقوله ﷺ قبل ذكره لهذه الجمل وهذه الوصايا قال "يا غلام إني أعلمك كلمات"، يقول الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- يمهد ﷺ، فمن أدب إلقاء الكلام أن تمهد بين يديه ما يوقع الكلام في نفس المتلقي، لابد أن تمهد، هذا من أدب الإلقاء.

[1] رواه أحمد: المسند (225/4) وصححه الألباني في الصحيحة (173/6)

قال ﷺ "يا غلام إني أعلمك كلمات إحفظ الله يحفظك" أول جملة أو أول وصية "إحفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك" في رواية "تجده أمامك" الحديث كما قلت عند الترمذي وقال حسن صحيح وصححه كذلك الشيخ الألباني -رحمه الله-

"احفظ الله يحفظك" "احفظ" أمر جوابه "يحفظك"، المراد بحفظ الله الوقوف عند حدوده جل وعلا، امتثال أوامره، اجتناب نواهيه، هذا هو المراد بحفظ الله تبارك وتعالى، ومرده إلى أمور ثلاثة كما يقول أهل العلم:

1. أن تحفظ الله في التوحيد بتحقيقه والثبات عليه.
2. الأمر الثاني، أن تحفظ الله عز وجل في الواجبات والمحرمات بامتثال الواجبات واجتناب المحرمات.
3. والأمر الثالث، حفظ الله عز وجل في المستحبات والمكروهات بالحرص على المستحبات والسعي في اجتناب المكروهات.

هذا هو المراد بحفظ الله، فمن حفظ الله في التوحيد وفي الأمر والنهي على ما سبق بيانه وفي المستحبات والمكروهات على ما سبق إيضاحه فإن العبد عند ذلك يستحق وصف الحفيظ الذي جاء في قوله تعالى: {وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب} الآية، الحفيظ قال علماء التفسير في معنى الحفيظ في الآية وتفسيرها، الحفيظ الحافظ لحدود الله، وقال بعض علماء التفسير الحفيظ الحافظ لذنوبه ليتوب منها۔ إذن الحفيظ الحافظ لحدود الله الحافظ لذنوبه ليتوب منها {وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب} أساس تحقيق حفظ الله هو سلامة القلب، ولذلك القلب هو القائد الأول وعليه في جميع الأمور المعول.

"احفظ الله يحفظك" إذن هذا هو حقيقة حفظ الله، وقال بعض أهل العلم -وهذا لا يتنافى مع ما ذكرناه-، حفظ الله أن تحفظ الرأس وما وعى وأن تحفظ البطن وما حوى -يعني ما جمع-، ما وعاه الرأس (السمع، البصر، الشم، والكلام -اللسان يعني-) أن تحفظ البطن وما جمع (الفرج والرجلين والقدمين) أن تحفظهم من المخالفة والجناية والذنب والمعصية والمحرم، أن تحفظهم بأن يكونوا على وفق دين الله جل وعلا وشرعه، ولذلك جاء في الحديث الحسن قوله ﷺ "الإستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى وأن تحفظ البطن وما حوى"[1] هذا حديث عن رسول ﷺ.

"احفظ الله يحفظك" فمن حَفظ الله حَفِظَهُ الله، كما قلنا "احفظ الله" أمر "يحفظك" الله جوابه.

ماذا نستفيد من هذا المقطع؟ الجزاء من جنس العمل، نستفيد من هذا المقطع هذه القاعدة، قال الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى- في مفتاح دار السعادة قال: "وقد دل الشرع والقدر على أن الجزاء من جنس العمل"

"احفظ الله يحفظك" قال أحد السلف: "من اتقى الله حفظ نفسه -بحفظ الله جل وعلا- ومن ضيع تقواه ضيع نفسه والله غني عنه" نسأل الله أن يستر علينا، {يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد} الآية.

"احفظ الله يحفظك" فإذا حفظت الله جل وعلا حفظك الله، ما حقيقة حفظ الله جلا وعلا للعبد؟

[1] رواه الترمذي (2458) وغيره من حديث ابن مسعود -رضي الله عنه-

على مقامين أو على معنيين كلاهما صحيح:

المعنى الأول: أن يحفظ الله عز وجل العبد في أمور دنياه، يحفظك في بدنك، في مالك، في ولدك وأهلك. قال أحد السلف: "من حفظ الله في صغره حفظه الله في كبره" هذا المعنى الأول أو المقام الأول، أن يحفظك الله عز وجل في أمور دنياك، قال الله تعالى: {له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله} أي بأمر الله، معقبات قال عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- هم الملائكة يحفظونه بأمر الله -يحفظونك في مالك في بدنك وهكذا-، وقال مجاهد -رحمه الله- لكل عبد ملك يحفظه عند نومه ويقظته من الإنس والجن والهوام إلا ما أذن الله فيه.

من الوقائع في هذا قوله تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَلَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} "فـ" التي تفيد الترتيب مع التعقيب {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ} -وهي قاعدة سارية- {وَكَذَٰلِكَ} بشرطه السابق في الآية {وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ}. ذو النون يونس عليه السلام، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام {وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا} لما دعا قومه إلى توحيد الله فما استجابوا له، فخرج من قومه غضبانا، غضب من قومه فخرج، قال أهل العلم وخروجه عليه السلام كان اجتهادا -هذا له متعلق بمبحث اجتهاد الأنبياء ليس هذا محل بسطه- المهم قال أهل العلم خرج اجتهادا عليه الصلاة والسلام، {وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ} المراد بالظن هنا الإعتقاد، يطلق الظن ويراد به الإعتقاد {فَظَنَّ أَلَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ} كيف ظن أن لن نقدر عليه؟ نقدر عليه هنا من القدرة؟! وهل يتصور في نبي أنه يعتقد أن الله لا يقدر عليه وعلى غيره؟ لا يمكن، قال بعض أهل العلم: {فَظَنَّ أَلَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ} فظن أن لن نُضَيّق عليه، وقال بعض أهل العلم: فظن أن لن نُقَدّر ونقضي -من القضاء والقدر- شيئا في خصوصه وخروجه من قومه غضبانا، أمَا لا يبدو أن المراد القدرة، {فظن ألن نقدر عليه} هذا محال خاصة في حق نبي، قال بعض أهل العلم هذا استفهام استنكاري بمعنى النفي، فظن أن لن نقدر عليه أي ما ظن أن لن نقدر عليه، نفي ظن عدم القدرة من يونس عليه السلام، النفي لا الإثبات أنه يعتقد عدم قدرة الله عليه بل نفي هذا الأمر عنه، يقول العلامة الشنقيطي رحمه الله في أضواء البيان وعلى حمل الآية على القدرة فهي إثبات بمعنى النفي، أي ما ظن أن لن نقدر عليه.

المهم قال تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَلَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ} فصار في شدة، وهو من الحافظين لله بل من أرفعهم فهو نبي من أنبياء الله، سيتحقق فيه قول النبي ﷺ "احفظ الله يحفظك"، {وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَلَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ} هي ظلمات ثلاث، ماهي هذه الظلمات؟

على قولين عند أهل التفسير، قيل ظلمة بطن الحوت -إلتقمه الحوت- وهذا الحوت التقمه حوت ثان -الظلمة الثانية- والحوت الثاني التقمه حوت ثالث -وهي الظلمة الثالثة-، والقول الثاني هو الأظهر والأشهر، ظلمة الحوت وظلمة البحر -في عمقه- وظلمة الليل -كان بليل-.

{وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَلَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ} هذا هو حفظ الله {أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} فجاء الجواب مباشرة {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ} إذن لما حفظ الله حفظه الله تعالى، وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمة الله عليه في كتاب الفوائد عند هذه الآية الجليلة أن هذه الآية من فوائدها العظيمة، أنها تدل أن تحقيق التوحيد من أسباب النجاة من الأذى، تحقيق التوحيد سبيل لدفع الكرب ورفع الغمة، ولذلك كلما ابتعد الناس وابتعدت المجتمعات عن تحقيق توحيد الله علما وعملا ودعوة لا يمكن أن ترفع الغمة أبدا.

إذن لما حفظ الله حفظه الله، وقد أخرج الحاكم وكذا الطبراني في الكبير بسند حسن واقعة عن سفينة -رضي الله عنه- ركب البحر فانكسر به المركب فألقى به البحر في جزيرة فإذا بِسَبُعٍ عند رأسه يهمهم قال سفينة: كأنه يدلني على الطريق فدله يهمهم ويمضي،[1] قال أهل العلم هذه كرامة لهذا الصحابي الجليل خرق للعادة وهذا لون من ألوان حفظ الله جل وعلا لأوليائه.

"إحفظ الله يحفظك" و قد أخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق واقعة تدل على حفظ الله لأوليائه، و قد أورد هذه الواقعة الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره لقول الله تعالى {أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء و يجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله}، هذه الواقعة تخص أبا بكر الدينوري و كان من العباد كان يكاري على بغلة له -يكاري يحمل الناس عليها كراء- من دمشق إلى الزبداني -الزبداني قرى من قرى دمشق، قرى معروفة في الشام- فإذا به قد أركب رجلا فمضى، مضى الدينوري هذا، في طريقه المعهود فإذا بالرجل يقول له لو تمضي من هذا الطريق. قال له لا أعرف طريقا يؤدي إلى الزبداني إلا هذا الطريق -من خدعنا بالله انخدعنا له- لما أصر قال له هناك طريق أخرى فمضى معه الدينوري فلما بلغ منتصف الطريق فإذا بالرجل كان من قطاع الطرق قال إيتني بما عندك و إلا أقتلك قال ما عندي شيء، فأصر عليه فقال له استحلفك بالله أن تتركني أصلي لله ركعتين وافعل بعدها ما شئت فتركه -قطاع الأزمنة الأولى- فتركه يصلي و كان الرجل من حفاظ كتاب الله تعالى فلما قرأ الفاتحة لم يستحضر شيئا -كان حافظا للقرآن- فلم يستحضر شيئا إلا قوله تبارك و تعالى {أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء و يجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله} فقرأها فلما انتهى من صلاته فإذا بسهم قد وُجِّه إلى ذلكم الرجل فقتله فنظر الدينوري فإذا بفارس على حصانه فسأله قال له من أنت ؟ قال أنا من جنود من يجيب المضطر إذا دعاه.[2]

الإمام أبو عبد الله القرطبي يحكي واقعة عن نفسه في الجامع لأحكام القرآن -يحكيها عن نفسه ما يحكيها عن غيره- في تفسير قول الله تعالى {وإذا قرأت القران جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا} واقعة يحكيها عن نفسه قال لما دخلت الأندلس وقصدت دخول حصن منثور -كان به الأعداء- قال فلما دخلت رأوني الجنود فتبعوني يقول أبو عبد الله القرطبي فبدأت اقرأ القران قال فحجبهم الله عني أراهم ولا يروني، يقول القرطبي حتى قال أحد الجنود لصاحبه أين الرجل؟ فقابله صاحبه قال لعله جني[3] -{وإذا قرأت القرآن} لكن أين هذه القراءة؟ قراءة حقة، {وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا}- "إحفظ الله يحفظك" إذن المقام الأول في حفظ الله أن يحفظك في أمورك الدنيوية في بدنك في مالك في أهلك وهكذا في أولادك.

المقام الثاني، المعنى الثاني في حفظ الله للعبد وهو أرفع المقامين أن يحفظ الله تبارك وتعالى العبد في دينه، -المقام الأول أن يحفظك في دنياك- المقام الثاني أن يحفظك في دينك ما معنى

[1] رواه الحاكم (675/2) والطبراني في الكبير (7 / رقم 6433) وغيرهما.
[2] تفسير ابن كثير (204/6) ط.دار طيبة
[3] تفسير القرطبي (243/10) ط.دار الفكر

حفظ الله عز وجل للعبد في دينه؟ أن يثبته عليه، أن يجنبه الشهوات و الشبهات، قال أهل العلم " قوام دين العبد في اجتناب الشهوة و الشبهة " قوام دينك في اجتناب الشهوة و الشبهة، فحفظ الله عز و جل للعبد في دينه أن يجنبك الشهوات و الشبهات ويثبتك على هذا الدين هذا هو المراد بحفظ الله عز وجل للعبد في دينه، وما أحوجنا إلى هذا الحفظ خاصة في ظل زمن الفتن، زمن الفتن تكثر فيه الشبهات و تتأجج الشهوات فما أحوجنا إلى حفظ الله، ما أحوجنا إلى حفظ الله تبارك وتعالى حتى نجتنب الشهوة و الشبهة ما أحوجنا إلى حفظ الله عز وجل حتى يثبتنا على ذلك لأن زمن الفتن زمن التقلبات، وإذا تأملت في زماننا هذا تجد تقلبات و تحولات مبناها على توهمات، و من أقبح مظاهر التقلبات في زماننا هذا أن تجد السقوط الجماعي ما يسقط فرد أقل فرد أكثر بقليل لا.. سقوط جماعي إلا من رحم الله تبارك وتعالى فما أحوجنا إلى تثبيت الله جل وعلا لنا خاصة زمن الفتن كما نذكر لكم دائما قولة ابن بطة الإمام رحمة الله عليه في الإبانة "إن هذه الأهواء والفتن قد فضحت خلقا كثيرا وكشفت أستارهم عن أصول قبيحة فأصون الناس لنفسه أحفظهم للسانه وأشغلهم بدينه وأشغلهم بما يعنيه "[1] -هذا هو الناجي هذا هو الناجي- فالفتن كواشف والفتنة كما يقول الإمام الآجري في كتابه الشريعة "الفتن يفتضح عندها خلق كثير"[2] فما أحوجنا إلى تثبيت الله.

ومما يدخل في حفظ الله للعبد أن يثبته كذلك عند الاحتضار، هذا يدخل الحفظ في حفظ الله للعبد أن يجنبك الشهوة والشبهة أن يثبتك على دينك أن يثبتك على الإسلام والسنة، أن يثبتك عند الاحتضار، واعلم أنه لا تثبيت عند الاحتضار بتثبيت الله إلا من ثبت على الإسلام والسنة في حياته ولا يخفى عليكم ما جرى لأهل الكلام إلا من تداركتهم رحمة أرحم الراحمين.

ذكر أهل العلم في ترجمة الإمام أبي زرعة الرازي، الإمام رحمة الله عليه في احتضاره زاره ثلة من المحدثين و هو في النزع، فأرادوا أن يلقنوه الشهادة -قل لا اله إلا الله كما هي السنة- فتهيبوا أن يلقنوه، -نحن نلقن أبا زرعة الأمر ظهر لهم ثقيل و الذي تسبب في حصول هذا الثقل ذلك التهيب أبو زرعة تطوى الألواح بين يديه و تنتكس الرؤوس كان إماما جبلا رحمة الله عليه فزوروا فيما بينهم أمرا أي هيئوا ، زور هيأ في اللغة- قالوا نتذاكر الحديث نحن أصحاب حديث نتذاكر الحديث فيما بيننا -والزمن زمن رواية، والعالم لفنه ميال- فبدأ احدهم يروي الحديث بسنده، حدثنا فلان عن فلان نسي تتمة السند! -الهيبة بين يدي أبي زرعة- فبدأ الثاني فما أتم السند و الثالث كذلك والرابع ما استطاع أحدهم أن يتم سند الحديث تهيبا لكونهم بين يدي أبي زرعة الرازي -انظر الفرق بين أدب الأوائل و قلة أدب من جاء بعد ذلك من الخلف، بلغ بهم المقام حتى نسوا إسناد الحديث هيبتا من أبي زرعة الرازي- كان أبو زرعة يسمعهم فلما انتهوا كان مغمض العينين ففتح عيناه رحمة الله عليه فقال حدثنا فلان أنبئنا فلان فأورد السند بطوله إلى رسول الله عليه الصلاة و السلام ثم قال : قال عليه الصلاة و السلام من كان آخر كلامه لا اله إلا الله دخل الجنة فخرجت روحه معها رحمة الله عليه هذا وارد في ترجمة الإمام أبي زرعة الرازي، أنظر إلى ثبات صاحب السنة هذا الثبات مما يؤنسك على الثبات على السنة زمن الغربة الثانية أن تستحضر وقت الإحتضار، ينفعك، فلا تستوحش من قلة السالكين ولا تغتر بكثرة الهالكين كما كان يقول الفضيل ابن عياض رحمه الله تعالى. إذن مما يدخل في الثبات أن يثبتك الله عز وجل عند الاحتضار وهذا من معاني قولة الإمام احمد ابن حنبل رحمه الله " بيننا

[1] الإبانة الكبرى (596/2)
[2] الشريعة: (231/1)

وبينكم يوم الجنائز" هذه مقولة مشهورة عن الإمام أحمد رحمه الله وقد أوردها عنه غير واحد منهم الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- في البداية والنهاية.

ما المقصود بهذه المقولة؟ لها معان عند أهل العلم ليس معنى واحدا، قيل كثرة الناس في جنازة الرجل.

هذه المقولة قالها الإمام أحمد لأهل البدع قال: "بيننا وبينكم يوم الجنائز" أو "شهود الجنازة" قالها لأهل البدع كما يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله.

فالمعنى الأول لمقولته رحمة الله عليه أن الناس يكثرون في جنازة صاحب السنة لكن لهذا المعنى شرط -فقد تجد الناس يكثرون في جنازة من عُرف بالفسق والخنا- إذن ليست ذات كثرة الناس في جنازة امرئ دال على ما قصده الإمام أحمد، لا. قال أهل العلم ضابط ذلك أن يكون ظاهر الإنسان في حياته التمسك بالسنة فإذا كان ظاهر الإنسان في حياته التمسك بالسنة وكثُر الناس في جنازته فهذا دليل خير بشرى له بإذن الله.

المعنى الثاني لمقولة الإمام أحمد، ثناء الناس عليه عند موته، يثني الناس عليه بالخير هذا المعنى الثاني.

والمعنى الثالث هو الشاهد، قال بعض أهل العلم المقصود من مقولة الإمام أحمد هو تثبيت الله للعبد عند الإحتضار كما حصل للإمام أبي زرعة الرازي رحمه الله تعالى.

إذن هذا هو المقام الثاني لحفظ الله عز وجل للعبد، إذن هو حفظ في الدنيا أو في أمور الدنيا وحفظ في أمور الدين "إحفظ الله يحفظك" قال عليه الصلاة والسلام: "يا غلام غني أعلمك كلمات إحفظ الله يحفظك إحفظ الله تجده تجاهك" وفي رواية "تجده أمامك".

"إحفظ الله يحفظك" الوصية الأخرى "إحفظ الله تجده تجاهك" "تجد أمامك" بمعنى إذا حفظت الله عز وجل تجده أمامك تجده تجاهك، ما المقصود؟ أي معينا لك موفقا.

المقطع الثاني فيه شهود مشهد المعونة والتوفيق، فإذا حفظت الله عز وجل وفقك، {وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب} إذن هذا هو المقصود بقوله عليه الصلاة والسلام " إحفظ الله تجده تجاهك" أي يوفقك "تجده أمامك" أي يعينك. وفي الحديث الصحيح كما في سنن ابن ماجه أن النبي صلى الله عليه وسلم علم معاذ رضي الله عنه أن يقول دبر كل صلاة "ربِّ أعني على ذكرك وشكر وحسن عبادتك" هذا في أمور الدين، وكذلك يعينك في أمور الدنيا " إحفظ الله تجد تجاهك" "تجده أمامك" أي يعينك ويوفقك في أمور الدين وفي أمور الدنيا.

أغلق باب التوفيق على الخلق من ستة أمور كما يقول شقيق بن إبراهيم البلخي -حافظ بلخ- رحمه الله قال:" أغلق باب التوفيق على الخلق..." هذه الأبواب مرجعها إلى ماذا؟ مردها إلى ماذا؟ إلى عدم حفظ الله، ولذلك لم يوفق الخلق أو لم يوفق بعض الخلق لأنهم ما حفظوا الله، فمرد هذه الأبواب التي بها يُسد باب التوفيق على الخلق كما يذكرها شقيق رحمه الله مردها إلى عدم حفظهم لله عز وجل. يقول شقيق بن إبراهيم رحمة الله عليه:" أغلق باب التوفيق على الخلق من ستة أمور:

1. اشتغالهم بالعلم وتركهم العمل
2. الإشتغال بالنعمة عن شكرها
3. المسارعة إلى الذنب مع تأخير التوبة

4. الإغترار بصحبة الصالحين مع ترك الإقتداء بفعالهم
5. إقبال الآخرة عليهم وهم يعرضون عنها
6. إدبار الدنيا عنهم وهم يتبعونها"[1] أي يلهثون وراءها.

هذه الأبواب بسببها يغلق باب التوفيق، لا يمكن أن توفق لا في دين ولا في أمر دنيا ومرد هذه الأمور إلى عدم حفظ الله تعالى، فعلى التفصيل ما جاء في كلام شقيق رحمة الله عليه.

"إحفظ الله يحفظك إحفظ الله تجده تجاهك" وفي رواية "تجد أمامك"

"إذا سألت فاسأل الله" الوصية الثالثة "إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله" قال أهل العلم هذا المقطع من الحديث منتزعٌ أو كأنه منتزعٌ من قول الله: {إياك نعبد وإياك نستعين}،

"إذا سألت فاسأل الله" المراد بالسؤال هنا الدعاء، والدعاء هو العبادة "إذا سألت فاسأل الله وإذا أستعنت فاستعن بالله" هي الآية نفسها {إياك نعبد وإياك نستعين} فالعبادة هنا مردها بالنسبة للحديث إلى الدعاء و{إياك نستعين} طلب العون من الله عز وجل.

"إذا سألت فاسأل الله" سؤال الله عز وجل واجب ومستحب:

- أما الواجب: -واجب عليك أن تسأل الله وحده دون سواه- أن تسأل الله جل وعلا وحده دون سواه فيما لا يقدر عليه إلا الله، إلا هو سبحانه. فسؤالك غيره فيما لا يقدر عليه إلا الله كفر وشرك أكبر. إذن السؤال الواجب أن تسأل الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.
- سؤال الله المستحب: أن تسأله فيما يقدر عليه المخلوق، فتسأل الله هذا مستحب، مستحب أن تسأل الله مع أنك تستعين بالمخلوق، لكن اعتماد قلبك على الله، تسأل الله ابتداء هذا مستحب.

قال بعض أهل العلم: سؤال المخلوق فيما تسأل أخاك أن يقضي لك حاجة، -هو يقدر عليها- قال بعض أهل العلم "وهو مكروه"، ليس الإطلاق هذا بمقصود، قالوا مكروه إذا لم تكن ثمة حاجة فإذا كانت الحاجة -قد تكون ظاهرة وقد تكون غير ظاهرة-، -يذكرون أن أبا عبد الله البخاري -صاحب الصحيح- ما كان يقضي حاجة أهله بنفسه -أراد شيء من قوت عياله، ما كان يقضيه بنفسه- لإمامته، تدري البيع والشراء قد ينقص مقام الإنسان، فيه اللجاج، فنحو هذه الحاجات تخرج الإنسان من حد المكروه، حتى تفهم ما أورده أهل العلم أن الواحد من السلف كان إذا فقد الملح في بيته يسأل الله، اعتناءً منهم بتحقيق هذا المستحب لكن عند الحاجة فلا إشكال في ذلك ولا كراهة في الأمر.

"إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله" طلب العون من الله، والمراد بذلك اعتمادك على الله عز وجل ابتداءً، بمعنى اعتماد قلبك على الله عز وجل مع الأخذ بالأسباب، وهذا هو حقيقة التوكل. لأن حقيقة التوكل على الله عز وجل. نستفيد من هذا المقطع شهود مشهد التوكل على الله "إذا سألت فاسأل الله" "وإذا أستعنت" وحقيقة ذلك طلب العون من الله عز وجل.

"إذا سألت فاسأل الله" حقيقة ذلك طلب العون فيستفاد من هذا المقطع شهود مشهد التوكل، اللجأ إلى الله، قال العز بن عبد السلام: "والله لن يصلوا لشيء بغير بالله، فكيف يوصل إلى الله بغير الله" فلابد من اللجأ إلى الله، إذن فيستفاد من هذا المقطع من الحديث شهود مشهد التوكل على الله عز وجل.

[1] الفوائد لابن القيم (ص: 177)

والتوكل على الله تبارك وتعالى يقوم على دعامتين اثنتين: الإستعانة بالله والثقة به، التوكل على الله يقوم على هاتين الدعامتين الإستعانة بالله والثقة بالله، لب التوكل كما يقول العلامة ابن القيم رحمه الله، جوهره، لبه، أساسه. وحقيقة الثقة هنا التفويض إلى الله، تفوض الأمر إلى الله لكن مع الأخذ بالأسباب المأذون فيها، قال السلف: "التوكل على الله عز وجل، حال رسول الله صلى الله عليه وسلم" هذا من حاله، أنه كان يتوكل على الله، التوكل على الله عز وجل حال رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأخذ بالأسباب من سنته {وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا} وكانت في المخاض، هي أولا امرأة وفي المخاض، هل يمكن أن تحرك نخلة! قال علماء التفسير: "لم تتجاوز رحمها الله أن وضعت يدها على النخلة وحصل الهز كرامة" حصل الهز للنخلة كرامة، خرق للعادة. فقال أهل العلم يستفاد من هذه الآية الأخذ بالأسباب.

إذن فالتوكل على الله هذا حال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والأخذ بالأسباب -أي المأذون فيها- هذا من سنته -عليه الصلاة والسلام-

ومن ثمار التوكل على الله، قوله -صلى الله عليه وسلم- "إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله" هذا له ثمرة، وهي ثمرة التوكل لأن المقصود بقوله "إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله" التوكل اللجأ إلى الله عز وجل الإعتماد عليه تبارك وتعالى، فثمرة ذلك انشراح الصدر وطمأنينته، أنت أخذت بالسبب المأذون فيه، توكلت على رب العالمين، تشعر بماذا؟ بالطمأنينة.

قيل لحاتم الأصم -حاتم الأصم رحمه الله عرف بالتوكل، اشتهر بقوة توكله على الله-، فسُئل في ذلك "كيف أدركت مقام التوكل؟" قال: "علمت أن رزقي لا يأخذه غيري فاطمأنت به نفسي" ولو بعد حين.

إذن قال عليه الصلاة والسلام: "إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله" وأعظم ما تسأل الله فيه وأعظم ما تستعين الله عليه، أن تسأله في مرضاته أن تسأله في ان يعينك على مرضاته وعلى طاعته وأن تستعين بالله تعالى على تحقيق طاعته، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " تأملت أنفع الدعاء..." بمعنى أين هو أنفع الدعاء، يقول رحمه الله: " تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال الله على تحقيق مرضاته" قال ابن تيمية: "فوجدته في قوله تعالى: {إياك نعبد وإياك نستعين}" ولذلك قال رحمة الله عليه: "{إياك نعبد} تدفع الرياء و{إياك نستعين} ترفع الكبرياء"

قال عليه الصلاة والسلام: "يا غلام إني أعلمك كلمات إحفظ الله يحفظك إحفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله" ثم جاء الختم "واعلم ..." وله مناسبة بما سبق "واعلم أن الأمة لو اجتمعت...واعلم... لو اجتمعت..." لماذا هذا؟ "واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك" لماذا؟ ما سره؟ سره استعانتك بالله، لأنك لا تسأل إلا الله، فسؤالك الله وحد واستعانتك بالله تبارك وتعالى وحده يورث ذلك، أن يصير عندك اعتقاد جازم "أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك" هم فقط أسباب، وإنما الأمر لله جل وعلا من قبل ومن بعد.

"واعلم أن الأمة" وهذا يشعرك بالعزة، عزة المؤمن في أن نواصي العباد وقلوبهم بيد الله، هذا عزة المؤمن. "واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بـ(شيء)" دلالة على ماذا؟ دلالة على اقل شيء يسير، "واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء

قد كتبه الله لك ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف" بماذا خُتم الحديث؟ بشهود مشهد الإيمان بالقدر.

"واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك" ما قدره الله من خير "ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك" من شر، فالله تعالى يقدر الخير ويقدر الشر، ولا بأس بنسبة الشر إلا الله في سياق التقرير العقدي، لكن في غير سياق التقرير العقدي ليس من الأدب أن تنسب ذلك إلى الله، فنفرق بين المقامين.

يقول أهل العلم: ليس من الأدب أن تنسب الشر إلى الله مع أنه هو الذي قدره، وهذا من إرادته الكونية القدرية، فقولهم هذا في غير سياق التقرير العقدي -ولا بد أن نراعي السياقات في المجالات، مجالات الكلام- إذن فهذا المقطع نستفيد منه هذا، شهود مشهد القدر.

فالله يقدر الخير ويقدر الشر مع التفريق -كما يقول أهل السنة- بين الإرادة الدينية الشرعية والإرادة الكونية القدرية، فالله أراد وقوع الشر كونا وقدرا لا دينا وشرعا، أراده كونا وقدرا لعلة الإمتحان والإبتلاء والإختبار بخلاف ما عليه المعتزلة ومن نحى منحاهم من نفي إرادة الله وقوع الشر وادعَو أنهم ينزهون الله، قالوا هذا من باب التنزيه، كيف ننسب إلى الله ذلك! ولو فرقوا بين الإرادة الدينية الشرعية والإرادة الكونية القدرية لاتضح لهم الأمر بجلاء وبلا لبس ولا إيهام. ولذلك لما قال القاضي عبد الجبار -وكان من المعتزلة بل كان على رأسهم- ماذا قال لأبي إسحاق الإسفاريني وقد ناظره في مسألة إرادة الله للشر؟

قال له القاضي عبد الجبار: سبحان الذي تنزه عن الفحشاء. -يعرض، يريد أن يقول وأنتم تقولون أن الله يقدر الشر، نحن ننزهه عن ذلك.- سبحان الذي تنزه عن الفحشاء.

فقال له أبو إسحاق الإسفاريني: سبحان الذي لا يقع في ملكه إلا ما يشاء.

فقال القاضي عبد الجبار: أيشاء ربنا أن يعصى؟!

فقال الإسفاريني: أيعصى ربنا مكرها؟ -أتكرهه على أن تعصيه، أم بإرادته!- أيعصى ربنا مكرها؟

فقال القاضي عبد الجبار: أرأيت لو منعني الهدى وقضى عليَّ بالردى -أي الهلاك-، -يعني أرأيت لو منعني الله الهدى وقضى عليَّ بالردى- أأحسن الله إليَّ أم أساء؟ -ماذا ظهر لك؟ -

فقال له الإسفاريني رحمه الله: لو منعك ما هو لك فقد أساء -وحاشاه- ولو منعك ما هو له فإنه يختص برحمته من يشاء.

سكت القاضي عبد الجبار وما تكلم بعدها ببنت شفة. فانتهت في زمنهم فتنة نفي إرادة الله تبارك وتعالى أو تقديره للشر.

"واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف" إذن هذا فيه شهود مشهد القدر، والإيمان بالقدر قال عبد الله بن عباس: "الإيمان بالقدر نظام التوحيد"[1]

[1] رواه اللالكائي في شرح الإعتقاد برقم (1224)

هو الناظم لأمور التوحيد، لو تأملت تجد أنه هو الناظم لأمور التوحيد والإيمان، قوله: "رفعت الأقلام وجفت الصحف" هذا فيه إشارة إلى مسألة عقدية مهمة!

أسألكم سؤال: هل كل ما يقدره الله تبارك وتعالى لا يتغير؟ أم يتغير؟

كم فرض الله عز وجل الصلاة؟ ابتداء كم؟ خمسون، تغيرت أم لا؟

قال الله جل وعلا في فرضها في بدأ الأمر خمسون، بعد ذلك تغيرت إلى خمس.

فتغير القضاء والقدر ... إيش يسمى هذا عند أهل العلم؟ القضاء المعلق.

القضاء قضاءان كما يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله[1]:

قضاء محكم، بعض العلماء يسميه القضاء المبرم، وهو الذي يوجد في اللوح المحفوظ، لا يتغير.

وقضاء معلق هو الذي يوجد في صحائف الملائكة، هو تغيير يحصل في الصحائف. هذا يسمى عند أهل العلم القضاء المعلق، يحصل فيه تغيير لحكمة يعلمها الله جل في علاه.

"واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف" قوله: "رفعت الأقلام وجفت الصحف" دلالة على عدم تغير ما قضاه الله وقدره، إذن هذا ما المراد به؟ القضاء المحكم -القضاء المبرم-.

قال عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما: "كنت خلف النبي ﷺ يوما فقال: يا غلام إني أعلمك كلمات إحفظ الله يحفظك إحفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف"

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك والحمد لله رب العالمين.

---

[1] *فتح الباري* (2/ 287)